

تحت عنوان «الرقابة والمسرح». أقيمت الدورة الثانية من «مؤتمر القاهرة الثقافي الفني الدولي» الذي ينظمه «المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية» في دار الأوبرا. نشر هنا كلمة المخرجة والممثلة اللبنانية نضال الأشقر التي تحدثت عن تجربتها في مسرحية «مجدلون» التي منعتها المكتبة الثنائي في الستينيات

المسرح ابن الرفض، وحياتة توازي الحياة

نضال الأشقر

الثقافة ليست ترفاً، الثقافة متلازمة مع الحياة القيمة، لذلك، فإن دعم الثقافة هو مساهمة في حياة أفضل. والمسرح كما وُصف كثيراً، هو أيضاً فعل حرية. لذلك، فإن دعم المسرح هو مساهمة في دوام الحرية والتعبير الحر وهو أيضاً مرآة لأعراف المجتمع وتقاليده، لكنه يُعبّر أيضاً عن رغباته وطموحاته. وهكذا يُمكنه أن يكون أداة لنقد المسلمات واختبار الممكن ومضاغفة الخيارات.

والمسرح فن يعيد الإنسان إلى روحه ووجدانه وجذوره، ويربطه ربطاً سحرياً بأرضه ولغته وتاريخه ومستقبله، وهو في تكوينه يرفض كل ما يُفترق، ويجمع تحت سقف واحد، جمهوراً متعدد الانتماءات. يحرّض على الحوار المثمر وعلى الفعل والتفاعل، لا على الانفعال فحسب. غير أن الحوار كما نريده ونبغبه لا يستقيم فعلياً بدون تعميم الديمقراطية واحترام التعددية وكبح نوازع العدوانية عند الأفراد والأمم على السواء كما قال سعد الله ونوس. وهذا القضاء، فضاء المسرح هو فضاء للمقاومة الثقافية وللبقاء منصة إبداعية وفكرية وفلسفية وفنية.

ونحن بحاجة ماسة للتفاعل والحوار، ونحن بحاجة إلى هذه المساحة الإبداعية الحرة للانفتاح على الآخر، والتواصل في ما بيننا، وقبول الآخر واحترام الاختلاف.

في ذلك المكان الساحر المسرح، بنمو التوق وينمو الشغف ويتعرع الخيال الوثاب الخلاق، في ذلك المكان، يعتلي فقير العرش دون إذن أو دستور، ويسقط الطاغية في ثانية واحدة عن عرشه. هناك يُفتح باب الخيال والاحتمالات والتغيير دون خوف... دون أي حاجز، دون أي ادعاء، ضمن هذه الرؤية، يُسكن هوس المبدعين الخلاقين وتوفهم الى المعرفة، وهنا تكمن قوتهم، في الانتقال بخفة بين الزوايا المظلمة في المجتمع والزوايا المضيئة، في نقض الثابت والهامد، وفي الهدم المُخلص.

إذا تخلى المبدعون عن كل ما يُدين ويكشف ويصدّم ويفضح ويثير، إذا تخلّوا عن إدانة الظلم وتعرية القهر، فإنهم يتخلّون عن سلاحهم الأمضى، أي عن اللعب بالنار. وإذا تخلى المبدعون عن حريتهم، فإنهم كالذي يرمي بالماء البارد على النار.

التعبير الحر هو الذي يطغى على هذا الفن، وهو الذي يفتح خياله وابتكاراته ومعالم الإبداع في مخيلته وعقله.

الحرية ليست فقط في التعبير الحر، ولكن بحرية الجسد والنطق والحركة والخيال، إذ أن المسرح هو كل ذلك معاً. يجب أن لا يكون هناك خوف، إذ أن هذا الفن يلغى ويصبح شكلاً فنياً دون مضمونه العميق الذي يرمي الى التغيير، خاصة في مجتمعاتنا. إذا قلمنا أظافره وشذبنا معانيه فإنه

يصبح دون أي فعالية قيمة.

هذه هي مهنتنا، فكيف نتخلى عن سيفها ذي الحدين؟ وكيف لنا أن نترك من لا ينتمي إلى هذا العالم أن يقرر القص والحذف وتغيير الموضوع وتشويه الحقيقة كي تمر على جهازة السياسة والطائفة يقبلونها ويقوموا بتدوير الزوايا حتى تصبح مسطحة المعنى مقصودة المخالب لا تعني أي شيء؟

نحن نمارس مهنة الهاوية، لذا يجب أن نبقي دائماً على الشفير ونقبل الوقوف هناك على شفير المنوعات والمحظورات والمحرمات وأن نواصل التفتيش عن الحقيقة ولو كانت جارية أحياناً.

فإذا كنا فنانيين مبدعين، فلن نقبل أبداً أي مقص مهمما كان حامله مهما أن يقطع جملة واحدة أو مقطعاً واحداً أراد الكاتب المبدع ضمن رؤيا كاملة لموضوع مدروس. هذا هو المبدأ.

إن الطفيليين الذين يدورون حول ضوء هذه المهنة ويدعون الفن وفهم أسرارها أكثر منا يجب أن يعرفوا أن الرقابة هي عكس الفن، وهي تلغي أهميته كلياً، هذا إذا كنا نعرف أن المسرح حرية، والحرية حق من حقوق

الإنسان، ودون حرية التعبير، فليس هناك فن ولا من يحزنون. إلى جميع القيمين على الثقافة، أقول: المسرح ليس ترفاً، وهو ليس عملاً عادياً ورخيصاً، ولا يمكن حصره في دائرة المقبول والمرفوض، المُحلل والمُحرّم. المسرح ابن الرفض، وهو أداة تغيير وثورة وُجلم... هو ليس بالحياة ولكنه حياة توازي الحياة.

كان ذلك أكبر عمل رقابي في تاريخ لبنان

يحكيها المبدعون. لذلك دعونا نُقرّر ما نريد المشاهدة المستنير أن نسمع وأن نرى. دعونا نُهيئ الطالب الشاب إلى غير أفضل. نترك للجمهور الخيالي، وهو الذي يُقرّر المجيء أو عدم المجيء إلى المسرح.

العمل الإبداعي الكبير لا يُقاس بالموازين نفسها التي يُقاس بها أي عمل آخر وأي مهنة أخرى. العمل الإبداعي الكبير قد يُظهر أحياناً، ولفرط صدقه وعرائه، كأنه عمل غير أخلاقي، شائن وخشن، يندفع إلى ردود فعل متفاوتة ومتناقضة. لكن

إذا أعطينا بعض الوقت للتفكير والتحميص، نكتشف أنه ملتزم بالأعماق الإنسانية ومشكلاتها الدفينة، دون أن تُنسى أن حرية التعبير عند الفنان الخلاق هي التي تعرف ما الذي تقوله وكيف؟

إن ردود فعل الجمهور أيضاً، وأقصى الجمهور الذي يجمعه مكان واحد، تتَمَثَّل في بقائه في المسرح، وإلا لكان غادره لو لم يتمكّن الفنان من الغوص عميقاً في المشاعر والعقول.

سنة 1968 وضمن «محترف بيروت للمسرح» الذي كنت قد أسسته مع روجيه عساف وشلة رائعة من الممثلين المحترفين وغير المحترفين والطلاب من الجامعات اللبنانية وعندما اكتشفت أن الفدائيين الفلسطينيين قد جاؤوا الى لبنان بأعداد كبيرة وتوجهوا الى الجنوب لبدء عملية المقاومة، قلت لروجي عساف حينها إننا يجب أن نقوم بعمل مسرحي عن الفدائيين والمقاومة.

أعجبه الموضوع وتعجب منه في الوقت نفسه. وبدأ العمل الجماعي الذي كنا يومها نتميز به وبداننا بالتنقيب عن العلاقة بين الفدائيين والجنوبيين وبينهم وبين الطلاب وعملهم معاً لبدء المقاومة. أخذنا

نموذجاً عن قرية جنوبية يعمل سكانها في التبغ «مجدلون». العمل كان شيقاً وكان الموضوع يتبلور. وعندما أصبح عملاً فنياً متكاملًا، قدمناه أمام جمهور مسحور صفق للموضوع وللممثلين، خاصة أنهم كانوا يرون الفدائيين باللبسة رؤوسهم الحمراء وأسلحتهم على المسرح للمرة الأولى.

في اليوم الرابع لتقديم العرض وكانت بيروت تضج بأخبار «مجدلون» و«محترف بيروت للمسرح» وقبل أن نبدأ، طوق المكتب الثاني أي المخابرات والجيش والفرقة 16 المسرح وطردونا منه ونحن نغني أغاني المسرحية الوطنية المقاومة. ضربونا في بنادقهم حتى وصلنا الى مقهى الـ «هورس شو» في الحمراء، وكان هناك لقاؤنا اليومي، فدخلنا وأحطنا بكل أنواع المخابرات والجيش والطلاب والصحافيين. بدأت بقول أول أسطر لي في المسرحية، فأجابني رضا وروجيه الخ... فاستاء منا الضابط وطردنا من المقهى. خرجنا الى الشارع نشتم ونصيح وقد قطع شارع الحمراء بالطلاب والجمهور الذي استاء من معاملتنا بهذا الشكل. وعندما قمت بشتم رئيس الدولة، أجبر الضابط على نقلنا جميعاً بسيارات الدرك إلى مخفر حبيش وذهب معنا الكثير من الصحافيين والطلاب والمتقنين.

وبما أنه كان يوم السبت والأحد، وكل الدوائر كانت مغلقة، أردوا أن يتركونا يومين كي يلقنونا درساً. فخرجنا بمساعدة والدي. وكانت هذه أكبر عمل رقابي في تاريخ لبنان وقد يكون في العالم العربي. كانت من أكبر وأهم المداهمات ضد حرية التعبير. وقامت القيامة ولم تقعد. وقالوا في الرقابة إننا لم نقدم النص، لكننا قدمناه وأخذنا الموافقة، غير أن القراءة المسرحية لا علاقة لها بالحركة على المنصة، فندموا على فعلتهم، إذ أن دخول الفدائيين الى لبنان لم يكن معروفاً من قبل الناس، فتشابكت الفنون والسياسة وكانت الدولة تريد أن تلمس دخول الفدائيين الى لبنان بسلاحهم.

وما كان للمسرحية الا أن فضحت الأمر وامتلات الصحف بالمقالات عن المسرحية والمحترف.

كلنا يعلم بحال الديمقراطية وحرية التعبير في عالمنا العربي، ولا مجال للسجالات في هذا الموضوع. لا ديمقراطية في عالمنا ولا حرية ولا حرية تعبير، وكل ما نقوم به احتمالات صغيرة هنا وهناك.

وقد كثرت الجمعيات الأهلية لإلغاء الرقابة، لكن إلغاء الرقابة يبدأ أولاً وأخيراً بإقامة دولة مدنية ديمقراطية لا طائفية. حينها لن يكون هناك رقابة، إلا رقابة المواطن المسؤول عن نفسه وعن عمله. وبما أننا نعيش وفي خاصرنا خنجر اسرائيل، سنكون دائماً حذرين مما نقول ومما نفعل فقط في هذا المضمار.

2015/04/06

